ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

زناتة المغرب الأوسط. القبيلة والمجال

Zenata of the middle Maghreb, the tribe and the territory

الدكتور إلياس حاج عيسى، جامعة تيارت
Ilyes.hadjaissa@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2019/12/17 تاريخ القبول: 2019/12/21 تاريخ النشر: 2020/01/31

الملخص: يتناول هذا البحث موضوع قبيلة زناتة البربرية ذات التأثير الكبير في العصر الوسيط، وبالأخص في مجال المغرب الأوسط، وقد انتبه ابن خلدون إلى العلاقة بين القبيلة والمجال في قوله «زناتة المغرب الأوسط» للدلالة على انتشارها الواسع فيه. ونسعى من خلال هذه الورقة إلى حلحلة بعض الإشكاليات، أهمها: التعرف على شبكة البطون التي تنتمي إلى زناتة وخاصة تلك التي اضطلعت بأدوار سياسية في بلاد المغرب؛ التعرف على المجال الجغرافي لهذه القبيلة وخاصة في المغرب الأوسط؛ ظاهرة الحلّ والترحال التي التصقت كثيرا بهذه القبيلة ومحاولة فهم دلالاتها، وكيف ارتقت من الترحال إلى الاستقرار. وللإجابة عن هذه التساؤلات وظّفنا بعض الدراسات التي اختصّت في الظاهرة الزناتية، بالإضافة إلى بعض المصادر وعلى رأسها «عِبَرُ ابن خلدون». ولا يخلو العمل من معيقات كصعوبة التحكم في الأنثروبونيمية الزناتية، وعدم اتفاق المصادر على التفريعات القبلية، وقطيعة المصادر الوسيطية مع أسماء القبائل المغربية لفترة ما قبل الفتح.

الكلمات المفتاحية: زناتة؛ مغراوة؛ المغرب الأوسط؛ البداوة؛ الاستقرار

Abstract : This research deals with the issue of the Zenata tribe, which has a great influence in the middle age, especially in the territory of the Middle Maghreb what made Ibn Khaldoun noticed the relation between the tribe and this region " Znata of the Middle Maghreb " to show its wide spread. Through this paper, we seek to solve some problems, the most important of which are : To identify the fractions of Zenata tribe, especially those that played political roles in the Maghreb ; to identify the geographical area of this tribe, especially in the Middle Maghreb ; The phenomenon of nomadism that was the main characteristic of this tribe and trying to understand its indications, and how it turned to sedentariness. In response to these questions, we have employed some studies that have been specialized in Zenata phenomenon, in addition to

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

some sources, mainly through Ibn Khaldoun. Work « El Ibar », this paper is not without such a disadvantage as the difficulty of controlling the zenata anthroponomy, and a rupture on sources just before the Muslim conqueste.
Key words : Zenata, Meghrawa, middle Maghreb, nomadism, sedentariness.

مقدمة

انتشرت قبيلة زناتة في كامل ربوع بلاد المغرب، وكان انتشارها أهم وأكبر في المغرب الأوسط، فاقترنت به واقترن بها وعبّر ابن خلدون عن ذلك «زناتة المغرب الأوسط». ومن تبعات الاهتمام بتاريخ المغرب الأوسط أن يكون الاهتمام بتاريخ زناته، والبداية تكون بمعرفة بطونها وفروعها واستيعاب انتشارها ومجالها الجغرافي

إن قيمة وأهمية دراسة زناتة، كونها القبيلة الوحيدة من بين قبائل البربر التي ساهمت بأدوار سياسية وعسكرية ومذهبية منذ الفتح إلى نهاية العصر الوسيط، لذلك كان حضورها في المصادر مستمراً. ويعود ذلك لأسباب منها الانتشار الجغرافي الواسع على خلاف قبائل البربر الأخرى، ونظراً لتعدد الاختيارات المذهبية (مالكية؛ اباضية؛ صفرية) مِمَّا جعلها تمارس السلطة والمعارضة معا. ويذهب باحثون أنه لا يمكن كتابة تاريخ المغرب في أية مرحلة من مراحله أو بقعة من بقاعه دون ذكر لبعض بطون زناتية.[1]

إن قبيلةً بهذا التأثير لجديرة بالاهتمام والبحث، وستقوم هذه الدراسة على ثلاث أسس، هي: التفريعات القبلية؛ الانتشار الجغرافي؛ جدلية الحلّ والترحال. وستطرح إشكاليات وتساؤلات، هي:

- متى ظهرت زناتة في المصادر الوسيطية ؟
- كيف يمكن تحديد بطون ومجالات زناتة. وهل استوعبت المصادر المنظومة الأنثروبونيمية (أسماء القبائل) والخريطة الطوبونيمية (أسماء الأماكن) لمجال زناتة ؟
- ماهي دوافع وظروف الانتقال والاستقرار لزناتة في المغرب الأوسط ؟

سيكون اعتمادنا على مجموعة من المصادر والمراجع، والمصدر الأساسي بالتأكيد هو تاريخ ابن خلدون بما يمثله من زخم وتنوع واستيعاب لتاريخ البربر، وتكمن قيمة ابن خلدون

1- سنوسي يوسف إبراهيم: زناتة والخلافة الفاطمية، مصر: مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، ط1، 1986م، ص.56

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بالإضافة إلى حجم احتكاكه بالمجموعات المغربية البربرية والعربية، إلى تنوع مصادره.[2] بالإضافة إلى عدد من المراجع التي سبق وأن بحثت في موضوع القبيلة البربرية.

1.دراسات سابقة-نماذج

لقد سبق وأن اهتمت بعض الأقلام بهذه القبيلة، نذكر على سبيل المثال: -بن عميرة محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، الجزائر، 1984م. والكتاب في الأصل عبارة عن مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة الجزائر، تحت إشراف موسى لقبال. والعمل هو رصد لمختلف أدوار زناتة المذهبية من الفتح إلى فترة حكم قبيلة صنهاجة، وهو يقع في ستة فصول، أفادنا الفصل الأول في اسم زناتة ونسبها وصلتها بالبتر وأهم فروعها ومواقعها الجغرافية وخصائصها.

-سنوسي يوسف إبراهيم: زناتة والخلافة الفاطمية، مصر، 1986م. الكتاب في الأصل عبارة عن مذكرة ماجستير، تقع في خمسة فصول، ركّز فيها الباحث على علاقة زناتة بالخلافة الفاطمية في دورها المغربي، قمنا بتوظيف الفصل الأول الذي كان عن بطون زناتة ومضاربها ومذاهبها. ولنفس الباحث: دور زناتة في المغرب الإسلامي بعد خروج الفاطميين حتى قيام المرابطين (462-462هـ)، وهي أطروحة دكتوراه من جامعة عين شمس، مصر، سنة 1985م، لم تسعفنا الظروف بالحصول عليها. والعملين تحت إشراف محمود إسماعيل. وهي أعمال تحمل مجهودات معتبرة.

تواجه الباحث في تاريخ القبليات المغربية صعوبات متعدّدة، منها مثلاً أن العديد من المجالات الجغرافية تبدو مجهولة الانتماء القبلي؛ إذ تعمد المصادر إلى الإشارة بوجود البربر دون تحديد اسم القبيلة، كوصف إحداها للجبال المحيطة بجزائر بني مزغنة بالقول: «وجبال فيها من البربر كثرة.» وقوله كذلك عن نواحي تنس: «ولها بادية من البربر كثيرة وقبائل.»[3] وقول آخر عن محيط تاهرت «وحواليها من البربر أمم كثيرة»[4] وأحيانا تصرح المصادر باسم القبيلة من دون تحديد التبعية إلى القبيلة الأم، فيجهل انتمائها ويزيد الاحتمال في أنها قبيلة مستقلة في نسبها،

2- عن مصادر تاريخ البربر عند ابن خلدون، أنظر: الكعاك عثمان: البربر، الدار البيضاء-المملكة المغربية: مطبعة النجاح الجديدة، ط2، 2003م ص.46-55

3- ابن حوقل النصيبي. أبو القاسم (ت. بعد 367هـ/977م)، صورة الأرض، ليدن: (د.ن)، ط02، 1939م، ص.76-77

4- البكري. أبي عبيد (ت.487هـ/1094م)، كتاب المسالك والممالك، ج.2، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1992م، ص.736

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

من دون إثبات، كقبيلة ازداجة بالقرب من وهران، وبنو بطوية بالقرب من مليلة، أو بنو برزال وبنو زنداج المقيمين بالمسيلة.[5]

يلخص ابن حوقل تعقيدات دراسة قبائل البربر بأنها قبائل لا يلحق عددهم ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم وتشعب أفخاذهم وقبائلهم وتوغّلهم في البراري وتبدّدهم في الصحراء. وعن زناتة خاصة يعترف -بعد أن وثّق لنا الكثير من بطونها- أنه لم يصل إلى علم الكثير من قبائلهم، ويكشف لنا سبب ذلك، وهو أن العلماء بأنسابهم وأخبارهم وآثارهم هلكوا، وكل ما أخذه عبارة عن بعض الرسوم التي أثبتها في كتابه عن بعض نسابتهم.[6] ومن الصعوبات المرتبطة بقبيلة زناتة نفسها وطبيعتها البدوية، ندرة المعلومات المتعلقة بالبوادي المغربية التي ظلت مهمّشة بسبب هيمنة المدينة، ومن مفارقات المصادر أن تتوفر المعلومات عن العلاقات بين الحواضر البعيدة وتكاد تنعدم بين الحاضرة وباديتها القريبة منها.[7] ويظل السؤال مطروحا عن تأخر المصادر في اهتمامها بالبادية المغربية إلى ما بعد مجيء القبائل الهلالية.

2.زناتة والدلالات الأنثروبونيمية

إن أكثر الإشكاليات التي تعترض الباحث في تفريعات القبائل عامة، وقبائل البربر ومنها زناتة خاصة، اختلاف رسم أسماء القبائل بين المصادر، ويصعب على الباحث إن وجد اسمين متشابهين في مصدرين مختلفين، أن يجزم أنهما لقبيلة واحدة أو هما اسمان لقبيلتين مختلفتين. والمسألة تحتاج إلى تمرّس وتمرّن في الأنثروبونيمية البربرية عامة وفي لسان زناتة خاصة، وهنا يجب استيعاب التنوع اللساني البربري، ومن باب الايضاح نبيّن حالة للاختلاف في النطق بين الزناتية والبربرية الأخرى في الكلمات الموحّدة؛ إذ نلاحظ إبدال الكاف شينا في بعض الكلمات: أَسْكَاوَنْ/أَشَّاوَنْ (قرون الحيوان)، وأَبَرْكَانْ/أَبَرْشَانْ (اللون الأسود).[8]

وتتعلق إشكالية ثانية بصعوبة رصد الاستمرارية المتعلقة بأسماء قبائل البربر من فترة مغرب قبل الفتح إلى ما بعده، انتبه إلى هذا الإشكال العديد من المهتمين، وقال أحدهم: «إنه من الصعوبة بمكان إيجاد الشبه في أسماء القبائل التي أوردها هيرودوتس والتي أوردها ابن

5- ابن حوقل، المصدر السابق، ص.78، 86

6- نفسه، ص.100، 107

7- تويراس رحمة: تعريب المجتمع في العصر الوسيط ودوره في التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب، مجلة أسيناك، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط-المملكة المغربية، عدد1، ط2، 2013، ص.64

8- الهاشمي أحمد: مدخل لدراسة المصطلح الجغرافي الأمازيغي في طوبونيميا الجنوب المغربي، ضمن كتاب: المصطلحات الجغرافية الأمازيغية، ج3، (تنسيق: حسن رامو)، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2011م، ص.12

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

خلدون.»[9] وهو ما يتقاطع مع قول الكاتب الروماني فلينوس: «يتعذر على حناجر غير حناجر البربر أن تستطيع النطق بأسماء قبائلهم ومدنهم.»[10] وهو نفس ما أورده ألفرد بل من أن المؤلفون اليونان والرومان أوردوا قرابة عشرون اسم لقبيلة بربرية «محرّفة بدرجات متفاوتة من التحريف»[11]

اختلف الباحثون في اسم زناتة ودلالته، بين من يرى أنه لم يظهر مع اسم القبائل البربرية التي وجدت في كتابات المؤرخين اليونانيين والرومان والبيزنطيين، وبين من يعتقد أن كلوديوس زناتوس Claudius Zenatus هو اسم لشخص من قبيلة زناتة في العهد الروماني.[12] وبالتالي فهي قرينة على الوجود القديم للقبيلة، وبالعودة إلى دورة الحضارة التي نبّه إليها ابن خلدون بالانتقال الطبيعي للشعوب من البداوة إلى الحضارة ومن الترحال إلى الاستقرار، يمكن افتراض أن زناتة تمثل العمق التاريخي القديم للبربر باحتفاظها بصفة البداوة.[13]

تبنّت المصادر الوسيطة الجدل الدائر حول زناتة، ورجّح معظمها أنها ليست من قبائل البربر، ولكنهم إخوة لهم لأن أصلهم كنعان بن حام، وأنهم قدموا من فلسطين، وممّن ذهب هذا المذهب ابن خلدون.[14] ومنها التي جعلت لها نسبا عربيا كذلك؛ منهم الإدريسي الذي يقول عنهم أن «في أول نسبهم عرب صريح.»[15] ويلخص ابن خلدون ملامح قبيلة زناتة مشبّها إياها بقبائل العرب في اتخاذ الخيام والإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين، وتخطف الناس من العمران، ورفض الانقياد للحكام، وهذا ما يفسّر أن أغلب القبليات التي اعترضت الجيوش المشرقية في مرحلتي الفتح والولاة كانت زناتية مثل جراوة مع الكاهنة وبنو يفرن مع أبي قرة، وكانت معظم الأحداث التي ذكرت فيها المصادر لفظ «البربر» أثناء مرحلتي الفتح والولاة تنعكس في نسبة كبيرة منها على زناتة، وعلى سبيل المثال كانت شكاية البربر

9- الكعاك عثمان، المرجع السابق، ص.15

10-الكعاك عثمان، المرجع السابق، ص.93

11- بل ألفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي-من الفتح العربي حتى اليوم، تر: بدوي عبد الرحمن، بيروت-لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط3، 1987م، ص.48

12-بن عميرة محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص.15

13- أنظر الكعاك عثمان، نفس المرجع، ص.11

14- ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد (ت.808هـ/1405م)، تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، عمّان-الأردن: دار الأفكار الدولية، (د.ت)، ص.1800-1801؛ أنظر كذلك الكعاك عثمان، نفس المرجع، ص.10

15- الإدريسي، الشريف (نحو 548هـ/1154م)، وصف افريقيا الشمالية والصحراوية. مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بيريس، الجزائر: مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية، 1376هـ/1957م، ص.112.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بتصرف الولاة بِبَقْرٍ بطون الأغنام بحثا عن الفراء البيض، ينطبق على زناتة التي اشتهرت برعي الأغنام.[16] ويذهب أحد الباحثين إلى الاستنتاج أن نمط العيش المبني على الترحال قد ساهم في تقبل جيوش الفتح والانسجام معها، على خلاف قبائل البربر المستقرة التي لم تتقبل بسهولة اقتسام مجالاتها مع الآخر.[17] وفي سياق ذي صلة رجّح باحثون أن تأثير التعريب الهلالي انتشر خاصة عند البربر الرحل، والمقصود بهم في الغالب زناتة.[18] وظهرت المصادر المعاصرة لمرحلة تفوُّق زناتة في العهد المريني متحمّسة للنسب العربي، وكشفت إحداها عن نصٍّ ادّعت أنه يعود إلى منتصف القرن الأول هجري، تعترف فيه العرب القيسية بأخوّة زناتة لهم.[19]

على الرغم مما سبق وجب الحذر من هذه القراءات؛ إذ المصادر الوسيطة نفسها التي يذهب بعضها إلى القول بأن زناتة قدمت من المشرق، ترى أن الأرض كانت للأفرنجة. ويبدو لنا أن المصادر الوسيطة اصطنعت تحليلات سطحية تتيح لها الوصول إلى واقع بلاد المغرب قبيل الفتح، فلم تشر إلى ظاهرة الاحتلال البيزنطي وما قبله، فقالت إحداها: «وكانت هذه الديار للافرنجة فاحتلها البربر عنها إلى جزائر صقيلية وغيرها، وتفرقت البرابر في بلاد افريقية وطنجة إلى أقاصي بلاد المغرب، ...، ثم تراجعت الافرنج إلى مدنهم وعمائرهم على موادعة وصلح من البربر، واختارت البربر سكنى الجبال والأودية والرمال وأطراف البراري والقفار وصارت المدائن رومية حتى افتتحها المسلمون.»[20]

يبدو أن أقرب التأويلات صحّة حول مدلول لفظ زناتة هو المرتبط بمدلول الرعي، إذ الأصل هو «إِزْنَاتَنْ» وهو مشتق من فعل «أَزَنْ» أي ابْعَثْ، والمقصود ابعث القطيع إلى المرعى.[21] ومعروف أن المصادر القديمة والمراجع الحديثة متفقة حول مسألة ارتباط زناتة بحياة البداوة والترحال والرعي.

16- ابن خلدون، العبر، ص.1800؛ الطمار. محمد بن عمرو، تلمسان عبر العصور. دورها في سياسة وحضارة الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص.23؛ بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص.37، 63

17- عزاوي أحمد: رسائل ديوانية مغربية (من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع ه)، مطابع الرباط نت، المملكة الغربية، ط1، 2014م، ص.6

18- تويراس رحمة، المرجع السابق، ص.67

19- مجهول، الدّخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية؛ نقلاً: عزاوي أحمد، المرجع السابق، ص.6-7

20- البكري، المصدر السابق، ج1، ص.328-329

21 - AMARA Allaoua، Pouvoir، Economie et Société dans le Maghreb Hammadide (395/1004-547/1152) volume II، Directeur de thèse Françoise MICHEAU، Université Paris I Panthéon-Sorbonne، UFR d'histoire، Année 2002، p. 624.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

3.قبيلة زناتة: البطون والفروع

كنا أشرنا من قبل أن زناتة اضطلعت بأدوار مختلفة ومتنوعة طيلة الفترة الوسيطة بين السلطة والمعارضة، بين المالكية والصفرية والاباضية، ويفسّر ابن خلدون الحضور القوي لزناتة بقوة عصبيتها فيقول: «في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمّة فلا بدّ من عودة شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية.»[1] والمقصود أنها ساهمت في كل فترة بفرع من فروعها بداية بجراوة[2] ثم بني يفرن ومغراوة وصولا إلى فروع بني واسين مثل بنو مرين وبنو عبد الواد وبنو توجين.[3]

لقد تكونت مجموعة من الدراسات الاستشراقية النمطية حول زناتة، عملت على تصنيفها في جهة مقابلة ومناقضة لقبائل البربر الأخرى كصنهاجة، بل جعلتها مختلفة عنها مستثمرة في ذلك، الفروق التي أقرّتها المصادر بين قبائل الاستقرار وقبائل الترحال، وبين قبائل السلطة وقبائل المعارضة. ومن بين تلك المقاربات الاستشراقية والتي سار على نهجها بعض الباحثين العرب، ما ذكره غابريال كامبس من أن زناتة وهي من القبائل المتنقلة شبيهة بالقبائل العربية في شبه الجزيرة العربية، وربما كان مجيئها من المشرق متأخراً عن باقي القبائل البربرية الأخرى، وأنها مارست على قبائل البربر ضغطا وألجأتهم إلى الجبال،[4] وهو دور شبيه بما قامت به القبائل الهلالية في منتصف القرن الخامس الهجري.

بالعودة إلى المصادر، يعتبر ابن حوقل الذي وضع كتابه في منتصف القرن الرابع هجري أول من فصّل في تعداد القبائل الزناتية، وخصّص لها عنوانا في كتابه، سمّاه: «من قبائل البربر الخارجة عن صلب زناتة» أحصينا فيه 142 فرعاً، وهو يرى أنه لم يصل إلى علم الكثير من قبائلهم، والسبب أن العلماء بأنسابهم وأخبارهم وآثارهم هلكوا.[5] ويبدو في حكم المؤكّد استحالة

1- ابن خلدون: المقدمة، ج1، تصحيح وفهرسة المندوه أبو عبد الله السّعيد، بيروت-لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية، ط3، (د.ت)، ص.155

2- بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص.37

3- سنوسي يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص.75

4-أنظر: كامب غابرييل، البربر. ذاكرة وهوية، تر: حزل عبد الرحيم، الدار البيضاء-المملكة المغربية: منشورات افريقيا شرق، 2014م، ص.165-166؛ بوطالب محمد نجيب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، بيروت-لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2009، ص.112-113؛ الكعاك عثمان، المرجع السابق، ص.78

5- ابن حوقل، المصدر السابق، ص.106-107

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

استحالة الإحاطة بجميع فروع وبطون زناتة؛ إذ تعترف المصادر بعجزها عن ذلك، منه قول ابن خلدون وهو يعدّد بعض فروع مغراوة: «...وغيرهم ممّن لم يحضرني أسماؤهم»[1]

وفي مخطوط ينسب إلى مؤلف مغربي اباضي مجهول عنوانه «تسمية مشايخ الوهبية» عدّد فيه أعلام المذهب الإباضي من المغاربة، موزعين على قبائلهم، فكان نصيب زناتة هو الأكبر بـ: 149 عَلَم موزعين على 34 فرع قبلي.[2] والمخطوط يحمل إشكاليات لا تختلف كثيرا عما هو موجود في باقي المصادر الوسيطة فيما يتعلق بحدود التداخل والانفصال بين القبائل المنتمية إلى زناتة، من ذلك مثلاً أن بعض المصادر تجعل بني دمّر كفرع من زناتة، في حين نجده في هذا المؤلف منفصلا عنها. ولم يستطع الباحثون في قبيلة زناتة من الفصل بين فروعها فعلّق أحدهم: «يحتاج ذكر فروع قبيلة زناتة إلى بحث طويل ولهذا يستحسن الاكتفاء بذكر الأهم منها.»[3] وقال آخر: «وخرجت من كلّ قبيلة بطون عديدة حتى تداخلت في بعضها البعض، واختلفت أنساب بعض القبائل فنسبت مرة إلى البتر وأخرى إلى البرانس.»[4] لذلك اكتفى معظم الباحثين بتحديد أهم الفروع.[5]

يعتبر اليعقوبي من المصادر الجغرافية المبكّرة التي قدمت وصفا عن قبائل البربر، وحاول أن يلتزم بالانتشار انطلاقا من الشرق، وذكر في هذا الشأن أن القادم من مصر يدخل أولا في مجالات قبائل لواتة ومزاتة، وهوارة. وربما أضاف الانتماء المذهبي لبعضها كقوله إن «مزاتة كلها اباضية»[6] أما زناتة فقد حدّد مجالاتها في الطريق من طرابلس إلى قابس، ولم يحدّد لنا بطونها واكتفى بالوصف العام «يسكنها قوم من البربر من زناتة ولواتة.»[7] واليعقوبي ليس وحده من يكتفي بالوصف العام للقبيلة، فابن حوقل وهو الزائر للمنطقة يبدو عاجزا عن تحديد بطون

1- ابن خلدون، العبر، ص.1814

2-مؤلف اباضي مغربي مجهول (ق.6 -7هـ/12-13م): ذكر أسماء بعض شيوخ الوهبية، طبعة حجرية، العطف-غرداية-الجزائر: دار التلاميذ "إروان"، (د.ت)، ص.592-595

3- ابن عميرة محمد، المرجع السابق، ص.18

4- سنوسي يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص.51

5 - MERCIER ERNEST, Les Berberes et les Arabes, Tafat Essai, Alger, 2012, p.15 ; بوتشيش. إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت-لبنان، دار الطليعة، ط1، 1998، ص.24

6- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الكاتب: كتاب البلدان، بيروت-لبنان، دار صادر، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل، 1892م، ص.344، 346

7- اليعقوبي، نفس المصدر، ص.347

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

زناتة في منطقة الجريد، ويكتفي بالقول إن مزاتة وزناتة قبيلتان عظيمتان مجاورتان للجماعات الاباضية في الجريد ونفوسة، وأضاف أنهما على مذهب الاعتزال.[1]

ومن البطون القليلة التي ذكرها قبيلة مكنانة (ربما يقصد مكناسة) حوالي مدينة نِقاوس.[2] وعدم الضبط في رسم أسماء القبائل في المصادر ظاهرة متكررة، تتوزع مسؤوليتها بين أصحاب المصادر أنفسهم والنساخ والمحقّقين. كما تحتاج بعض الاجتهادات والتأويلات المصدرية إلى إعادة بحث وإثبات، كقول اليعقوبي أن بني برزال فخد من بني دَمَّر من زناتة.[3] ومن خلال المصادر الجغرافية المبكرة يتبيّن أن بعض فروع زناتة قد مارست الاستقرار في مدن متواضعة عمرانيا، مثل بنو يرنيان المستقرين في مدينة هاز، وقرية جرتيل في الطريق إلى تاهرت كان سكانها من زناتة.[4] وفي الطريق من تاهرت في تجاه سجلماسة تستقر في مدينة أوزكا أغلبية زناتية من فخد يقال لهم بنو مسْرة رئيسهم عبد الرحمن بن أودموت بن سنان، ومنها غربا أرض لزناتة ثم يصل الطريق إلى سجلماسة.[5]

1.3.بنو يفرن

من أشهر القبائل وأكثرها تأثيرا في مرحلتي الفتح والولاة، كان استقرارها في البداية بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط، ثم انسحبوا إلى الناحية الغربية من بلاد المغرب تحت ضغط قبيلتي هوارة ولواتة المنتشرتان بين طرابلس وجبل أوراس.[6] وتعتبر رفقة مغراوة من أكبر بطون زناتة انتشاراً، فَإِفْرانْ أو يَفْرِنْ المنتشر إلى اليوم في مواضع متفرقة من بلاد المغرب من نواحي طرابلس شرقا إلى المغرب الأقصى غربا، يقوم كمؤشر طوبونيمي مدعّم لفكرة وجود قبيلة بني يفرن وانتشارها في مجالات متنوعة من بلاد المغرب. ومن بين الأدوار السياسية والمذهبية المؤثرة لهذه القبيلة، مشاركتها الواسعة في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، بما كان بينهم من

1- ابن حوقل، المصدر السابق، ص.96
2- اليعقوبي، المصدر السابق، ص.351
3- نفسه، ص.352
4- مدينة هاز من المدن الأولى التي دخلت تحت سلطة الحسن بن سليمان ابن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وجرتيل هي قرية تقع في الطريق بين هاز وابن ماما في الطريق إلى تاهرت. أنظر: ابن حوقل، نفس المصدر، ص.86؛ اليعقوبي، نفس المصدر، ص.352
5- اليعقوبي، نفسه، ص.359
6- بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص.18؛ سنوسي يوسف، المرجع السابق، ص.66-72

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

العصبية المشتركة، وبعد القضاء على الثورة عمل الفاطميون على تصفية مجالات افريقية والزاب من فروع هذه القبيلة، فتركت مضاربها إلى جهة الغرب.[1]

2.3.مغراوة

تكاد تتطابق الروايات في أن مغراوة من أكبر بطون زناتة، وفيها قال أبو يعقوب يوسف الوارجلاني في قصيدته الحجازية:[2]

وَمَغْرَاوَةَ عَلْيَا زَنَاتَةَ كُلِّهَا وَغَيرِهِمْ مِنْ خَيرِ أَهْلِ الجَزائِرِ

ويمكن القول إن رئاسة زناتة في المغرب الأوسط كانت في بطون مغراوة، وبني يفرن، وبني ومانو، وبني يلومي. وكانت مغراوة أكثر قبائل زناتة ظهوراً في المغربين الأوسط والأقصى في عهد زيري وبلكين والمنصور، وكان حماد في نهاية القرن 4هـ يحارب مغراوة وبني يفرن من زناتة في المغرب الأوسط، وفي عهد ابنه القائد ظهرت شخصية زيري بن عطية وهو من مغراوة كذلك، وفي عهد الناصر بن علناس استمرت مغراوة في مواجهة صنهاجة ممثلة في بني وارسيفان، وظهرت فروع أخرى على مسرح الأحداث مثل بني توجين، وفي عهد ابنه المنصور ظهر بنو ومانو كفرع تعود إليهم رئاسة زناتة في المغرب الأوسط بزعامة ماخوخ،[3]

4.المجال الجغرافي

إن مجالات زناتة في بلاد المغرب واسعة، ووصفها أحد مؤرخي القرن الرابع هجري بالقول: «إذ البلاد التي تجمعهم والنواحي التي تحيط بهم، مسيرة شهور في شهور.»[4] وتصنّف زناتة عادةً ضمن البربر البتر، وهم –على حدّ قول الإدريسي- قوم رحالة ظواعن، يرتحلون من مكان إلى مكان، لكنهم متحضرون! وأكثر زناتة فرسان، أصحاب خيل. ولهم عادية لا تؤمن![5] والمعروف عن زناتة أنها استوطنت مناطق متفرقة من بلاد المغرب، وأكثر انتشاراً من قبائل

1- سنوسي يوسف، نفس المرجع، ص.67

2- الوارجلاني. أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي (ت.570هـ/1174م)، رحلة الوارجلاني، تح وتع: يحي بن بهون حاج امحمد، غرداية-الجزائر: (د.ن)، ط01، 2006م، ص.38؛ وعن انتشار مغراوة، انظر: الطمار. محمد بن عمرو، المرجع السابق، ص.23-24

3- ابن خلدون، العبر، ص.1562، 1639، 1640، 1641، 1642.

4- ابن حوقل، المصدر السابق، ص. 107.

5- الإدريسي، المصدر السابق، ص.111

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

البربر الأخرى،[1] والمعروف أن المغرب الأوسط هو مجالها الرئيسي، فيقال عنه: «وطن زناتة»[2] واختيارنا للمغرب الأوسط كان بناءً على ثبوت وجود المصطلح كحيز جغرافي عند مؤلفي الفترة الوسيطة، ورسوخه أكثر في فترة ما بعد الموحدين، ويؤكّد ابن خلدون على رسوخ هذه المفاهيم المجالية في أذهان ساكنيها بالقول عن مجالات مراكش وفاس ومكناسة وتازا «تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها.»[3] وظلّ إقليم المغرب الأوسط تابعا لزناتة القبيلة على الرغم من السيادة السياسية لقبائل غير زناتية. ففي عهد السيادة الصنهاجية في عهد بلكين بن زيري، تعلّق إحدى المصادر على فرار الأمير الزناتي ابن خزر إلى سجلماسة بأنه «صاحب المغرب الأوسط.»[4] وفي سياق ذي صلة لا يمكن الفصل بين ظاهرة قلّة العمران في هذا المجال الجغرافي، وبين سيطرة زناتة عليه، وهي قبيلة أقرب إلى البداوة وما تمليه ظاهرة البداوة من بساطة في المسكن والمعدّات والآلات والأثاث والمتاع.[5]

تتعدّد أوصاف المصادر التي تفيد اتّساع المجال الجغرافي لهذه القبيلة، وأن بلاد المغرب كلّه مجالاً لزناتة، وأن بلادهم واسعة يجاورهم من جهة إفريقية بنو زغبة من بني هلال، ومن جهة المغرب بلاد مسوفة من صنهاجة.[6] وظلوا محافظين على انتشارهم إلى نهاية العصر الوسيط؛ وهو ما عبّر عنه ابن خلدون في القرن الثامن هجري قائلاً: «ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب»[7] ويظهر ابن حوقل عاجزاً عن الإحاطة بمواطنها وقبائلها والسبب — حسبه- أن «البلاد التي تجمعهم والنواحي التي تحيط بهم مسيرة شهور في شهور.»[8] وهي شهادات

1- تطرح الفسيفساء القبلية البربرية غير المتوازنة من حيث أنماط العيش، وغير المتجانسة من حيث التوزيع القبلي، وغير المتشابهة من حيث الألسن، تطرح إشكالية قدم تنقل القبائل البربرية وعدم استقرارها.

2-ابن خلدون: العبر، ص.1800

3- ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص.64

4-ابن خلدون، العبر، ج.6، ص.206

5- التليلي محسن، الإسلام البدوي اسلام الطوارق إنموذجا، بيروت-لبنان: دار الطليعة، ط1، 2010م، ص.50-51

6- مجهول مراكشي من كتاب ق6هـ/12م، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء-المملكة المغربية، 1985م، ص.179.

7- ابن خلدون: العبر، ص.1800

8- ابن حوقل، المصدر السابق، ص.107

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تناقض ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن الزناتيون عُرِفوا بقلّة عددهم نسبة للعناصر البربرية الأخرى.[1]

ربما كان ابن عبد الحكم من أوائل الكتاب الذين أشاروا إلى زناته وانتشارها ولو على سبيل الوصف العام، عندما استفتح كتابه بانتشار قبائل البربر القادمة من فلسطين حسبه، قائلا: «فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال وتقدمت لواتة فسكنت ارض نطابلس وهي برقة...ونزلت هوارة مدينة لبدة، ونزلت نفوسة إلى مدينة سَبْرَت.»[2] ويبدو واضحا أن معلومات ابن عبد الحكم سطحية في معرفته بقبائل البربر، فهو لم يتعرف على قبائل أخرى مثل صنهاجة وكتامة ومصمودة وغيرها.

على ضوء الجغرافية الوصفية المبكّرة لبلاد المغرب كاليعقوبي وابن حوقل، يتبيّن أن انتشار زناتة في إقليمي برقة وافريقية كان ضعيفا وكانت القبائل الأكثر انتشاراً هي لواتة ومزاتة وهوارة. كما يلاحظ أن انشار زناتة في الغالب كان في محيط القرى والمدن، وبنسبة أقلّ يكون في قرى ومدن بعينها، وهذا تفسير لظاهرة الجمع بين الحلّ والترحال التي تقاسمتها بطون قبائل زناتة في العصر الوسيط الأعلى، وعبارات «رحالة، ظواعن، متحضرون» التي استعملها الإدريسي تخدم هذا السياق.

1.4.خط أوراس-وارجلان

يعتبر جبل أوراس معقلا من معاقل زناتة ممثلا في قبيلة جراوة، بالإضافة إلى قبائل من هوارة، وتنتشر العديد من قبائل زناتة في خط افتراضي يربط بين أوراس شمالا إلى وارجلان جنوبا، والعديد من تلك القبائل هي فروع لقبيلة مغراوة الزناتية، ففي منطقة الزاب بطون من بني سنجاس ومعهم بطون أخرى من بني ريغة، وهم الذين أسّسوا قصورا عرفت باسمهم،[3] وكان بعضها على المذهب الإباضي، فجاء ذكر منطقتهم في المصادر الاباضية باسم وادي ريغ تارة،

1- ناصح: جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب خلال القرن السادس هجري، ص.89؛ نقلا عن: بوتشيش ابراهيم القادري، المرجع السابق، ص.25

2- ابن عبد الحكم. عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح أفريقية والأندلس، تح: عبد الله أنيس الطبّاع، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، 1963م، ص.28؛ ونفس المعلومات نقلها البكري: المصدر السابق، ج1، ص.328

3- سنوسي يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص.62

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وباسم أريغ أو ريغ تارة أخرى.[1] وكانت بعض فروع بنو خزر من مغراوة موجودة بالقرب من بسكرة ووارجلان.[2]

2.4.خط وانشريس-تلمسان

يعتبر هذا الخط من أكثر مراكز انتشار زناتة كثافة، وبفضله اقترن إقليم المغرب الأوسط بقبيلة زناتة. ويبدو من خلال وصف الجغرافيين أن خط وانشريس-تلمسان من المجالات التقليدية لقبيلة زناتة، وفيه العديد من فروعها، كما وجدت بعض القبائل الأخرى من غير زناتة في هذا المجال. وإذا كانت زناتة قد ظهرت على مسرح أحداث المغرب الإسلامي منذ الفتح ولم تختفي منه إلى نهاية العصر الوسيط، فإن الأدوار التي اضطلعت به فروعها كان مختلفا ومتباينا، منها التي ظهرت في بداية العصر الوسيط أثناء عملية الفتح وفي عصر الولاة وعصر الدول المستقلة، ومنها التي ظهرت في منتصف العصر الوسيط أثناء حكم الفاطميين وصنهاجة ومصمودة، ومنها التي ظهرت في نهايته مع حكم الحفصيين والزيانيين والمرينيين.

كانت البداية من حيث الظهور والتأثير في هذا المجال لمغراوة وبنو يفرن، ومعهم مديونة، ومغيلة، وكومية، ومطغرة،[3] ومطماطة. ثم جاء من بعدهم بني ومانو وبني يلومي، ومن بعدهم لبني عبد الواد وبني توجين وهم من بني وادين[4]، وقد حدّد الإدريسي أهم فروع زناتة التي استوطنت المنطقة الواقعة بين تاهرت وتلمسان، مثل بنو مرين ووماني وومانو وانجاسة، وغمرة، ويلومان، وتوجين، ووَرْشفان، ومغراوة، وبنو راشد.[5] هذه القبائل كانت تمتد جغرافيا من نهر شلف إلى ما بعد تلمسان؛ بل إلى المحيط، وفي المغرب الأقصى كانت تشاركها قبائل أخرى مثل برغواطة، ومصمودة، وأوربة. وفي محيط تاهرت في القرن الخامس هجري، استوطنت زناتة ومكناسة ومطماطة شمال المدينة كما وجدت لواتة وهوارة في جنوبها، وفي غربها زواغة، وحصن لقبيلة برقجانة في شرقها.[6] أمّا تلمسان فهي المركز الرئيسي لقبائل زناتة إلى

1- أنظر: أبو زكرياء. يحي ابن أبي بكر (ت.471هـ/1078م)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح وتع: اسماعيل العربي، الجزائر، المكتبة الوطنية، 1399هـ/1979م؛ الدرجيني: طبقات المشايخ؛ مجهول: كتاب المعلقات.

2-سنوسي يوسف إبراهيم، نفس المرجع، ص.62

3- كانت مطغرة تسكن سهل سيرات بالقرب من تاهرت، ومعها قبائل أخرى من بربر زناتة. انظر: مجهول، الاستبصار، ص.179.

4- ابن خلدون، العبر، ص.1832 وما بعدها؛ جوليان. شارل أندري، تاريخ افريقيا الشمالية، ج2، تعريب: مزالي محمد. بن سلامة البشير، تونس: الدار التونسية للنشر، ط3، 1985، ص.200.

5- الإدريسي، المصدر السابق، ص.111.

6- البكري، المصدر السابق، ج2، ص.734

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

غاية القرن الخامس هجري «فهي دار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر.»[1] حسب تعبير البكري، وذلك منذ عهد أبي قرة اليفرني الصفري عندما كانت تسمى أقادير.[2]

وكانت قبائل بنو توجين تمتد اراضيهم مابين قلعة سعيدة في الغرب والمدية في الشرق، كما كانت لهم بعض القلاع منها: قلعة ابن سلامة، ومنداس، ووانشريس، وبنو ومانو كانو من أشد بطون زناتة شدّة، وكانت أراضيهم تمتد من أسفل شلف إلى نواحي وهران. وأمّا مطماطة فكان تواجدهم بتلول منداس عند جبل وانشريس وجبل كزول من نواحي تاهرت. ومغيلة عند مصب شلف في البحر من ضواحي مازونة. وقبيلة كومية موطنها لجهة البحر من ناحية أرشكول وتلمسان. وكانت معظم القبائل التي استوطنت جبل وانشريس من زناتة، منها مكناسة ومطماطة، وبنو مليلت، وبنو وارتجان، ويصلاتن، ومطغرة. بالإضافة إلى فروع محدودة من كتامة وزوارة، ، وهوارة.[3]

3.4.خط الواحات

بالإضافة إلى الخطوط والمجالات السابقة، يمكن الحديث عن أطول خط سيطرت عليه زناتة، وهو خط جبال الأطلس وسفوحه الممتد من جبل نفوسة جنوب طرابلس شرقا حتّى ساحل المحيط الأطلسي غربا، وهو الذي عبّر عنه ابن خلدون ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى.[4]

كما انتشرت زناتة في المغرب الأوسط جنوب خط أوراس-تنس، والذي يمثل الحد الفاصل مع صنهاجة، وهنا نجد زناتة تستوطن جميع واحات المغرب الأوسط، في منطقة الزاب وفي معظم الواحات الصحراوية سواء الشرقية مثل وارجلان، وأريغ، والوسطى كبلاد مُصاب (مُزاب)، والغربية مثل واحات توات وتيكورارين(تيميمون). وحول المسيلة استوطنت قبائل بنو برزال وزنداج، وهوارة، وسدراتة، ومزاتة،[5] وذلك قبل وصول القبائل الهلالية إلى المنطقة.

1- نفسه، ص. 746

2- الطمار. محمد بن عمرو، المرجع السابق، ص.20

3- الإدريسي، المصدر السابق، ص.107.

4- ابن خلدون: العبر، 1800؛ التليلي محسن، المرجع السابق، ص.44

5- الإدريسي، المصدر السابق، ص.108.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

5.جدلية الحلّ والترحال عند زناتة

تميزت زناتة عن باقي قبائل البربر باختلاف نمط العيش، وشاع عنها حياة البداوة والترحال، وهنا نذكّر بما أوردناه سابقا من أن لفظ زناتة قد يكون مرتبطا بمدلول الرعي: «إِزْنَاتَنْ= أَزَنْ= ابعث= ابعث القطيع إلى المرعى».[1] وخدمة لهذا المدلول يصف البكري تجمعات كبيرة لقبائل زناتية تتمذهب بمذهب الواصلية بالقرب من تاهرت تسكن الخيام، «في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها.»[2] وإشارات أخرى تؤيّد ظاهرة الترحال، ولو في جماعات محدودة العدد، فعند أبي زكرياء كان مؤسّس حلقة العزابة وتلامذته وهم من زناتة ينتقلون في فصل الربيع من أريغ إلى منطقة مزاب.[3] بالإضافة إلى عامل المجال الجغرافي الذي يؤكّد على انتشار زناتة في منطقة السهوب وشمال الصحراء، وهي مناطق رعوية.[4] تبدو صفة البداوة سابقة لمرحلة قدوم القبائل الهلالية، لكن يبدو أن بنو هلال بقدومهم دفعوا بالعديد من قبائل البربر إلى الاستقرار، واستأثروا هم بمجالات الرعي والترحال.[5]

1.5.مظاهر الترحال

اشتهرت زناتة في أوساط الباحثين بأنها من قبائل البربر البتر المتنقلة، وهو تصنيف مقابل لقبائل البربر البرانس المستقرة مثل كتامة وصنهاجة. لكن المصادر والأبحاث لم توفّق إلى الآن في تحديد الفرق بين قبائل زناتة المتنقلة والمستقرة والدوافع الكامنة وراء وجود الصنفين، كما نفتقد إلى أبحاث مقنعة في تقديم آليات انتقال زناتة من مرحلة الانتقال إلى الاستقرار. والحقيقة أن النماذج وفق هذا السياق نادرة في المصادر. والقليل منها في حاجة إلى دراسة وتحليل معمّقين مع الاستعانة بعلوم مفسّرة ومساعدة كالطوبونيميا والأنثروبونيميا. وتذكر المصادر جدلية الحلّ والترحال وتداخلها في الحالة الزناتية، بوصف الإدريسي لهم بأنهم «قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى مكان غيره لكنهم متحضرون.»[6] وكانوا يسافرون ومعهم بيوت سكناهم من الخيام والقياطن.[7] وهو ما دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد أن زناتة في العصر

1 - AMARA Allaoua ، Pouvoir ، Economie et Société ، vol II ، p. 624.

2- البكري، المصدر السابق، ج02، ص.735.

3- أبو زكريا، المصدر السابق، ص.175.

4 - AMARA Allaoua ، op.cit. vol II, p. 624

5 -AMARA Allaoua ، op.cit. vol II, p. 625

6- الإدريسي، المصدر السابق، ص.61

7- ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص.285

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الوسيط كانت على ثلاثة أصناف: رحالة كبار grands nomades وهم رعاة أشبه بالبدو، أنصاف الرحالة semi-nomades وهم زراع ورعاة فهم أنصاف بدو، والرحالة الصغار petits transhumants وهم زراع. وهو تدرّج أتاح للصنف الأخير أن يكون الأقرب لتأسيس المدن.[1]

يرفض بالمقابل بعض الباحثين التصنيف الثنائي للبربر (برانس-بتر)، ويرى فيه الكثير من التبسيط والنسبية، حجتهم في ذلك أن طوارق اليوم وهم يحافظون على ملامح بدوية واضحة هم من صنهاجة التي صنفت أنها من القبائل المستقرة.[2] لذلك وجدنا من انتبه لذلك واكتفى بتصنيف صنهاجة الجنوب ضمن قبائل البدو الرحّل.[3] والمرجّح من طريقة التوزيع الجغرافي لزناتة في ربوع المغرب أنها كانت من قبائل البربر التي سكنت الصحراء الكبرى وارتحلت فيها وتقاسمتها مع قبائل أخرى منها لواتة وصنهاجة ولمتونة وهوارة وزغاوة.[4] وربما كانت زناتة بانتشارها وترحالها تمارس ضغطا على كتل قبلية كبيرة من حجم صنهاجة، واستفزازاً لها للخروج من مجالها وتأسيس كيانها السياسي.[5]

يعتبر الصدام بين المتنقل والمستقر قانون اجتماعي قديم، شبيه بالصدام بين الجبلي والسّهلي، وبين المدني والريفي، تحكمت فيه عوامل منها: قلّة مراكز اجتذاب في مجال المغرب الأوسط، وانعدام المجاري المائية الكبيرة القابلة للملاحة، وأمام شساعة الرقعة الجغرافية أصبح المجال حلبة للتنافس والصراع وصعّب العلاقة بين السكان، وصبغ المنطقة بصيغة التجزئة السياسية.[6] لكن بعض المصادر الوسيطية كانت تكتب عن زناتة من زاوية الكيانات السياسية القائمة وقتها، وتنظر بعين حكامها، فوصفتها بالخارجة على السلطة القائمة. ظهرت زناتة حاملةً للواء التمرّدات والثورات انطلاقا من نهاية القرن الأول للهجرة، وكانت المتبنيّة لمعظمها[7]. فهي

1- بل ألفرد، المرجع السابق، ص.41؛ بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص.22-23
2- أنظر: كامب غابرييل، المرجع السابق، ص.166
3- بوتشيش. إبراهيم القادري، المرجع السابق، ص.12
4- التليلي محسن، المرجع السابق، ص.42
5- التليلي محسن، نفس المرجع، ص.45؛ بن عميرة محمد، نفس المرجع، ص.27
6- بل ألفرد، المرجع السابق، ص.41
7- يحاول بعض الباحثين تفسير المسار الثوري لزناتة طيلة عقود، بأن مستوى التدين عندها كان سطحيا! اسماعيل العربي، دولة بني حماد، ص40. وفي أحسن الحالات فهم ثوريون فوضويون يميلون إلى تقويض نظم الحكم عكس صنهاجة الداعمة للسلطة، وصاحبة القيم، ثم يصل التقييم الإستشراقي – المتوهّم-إلى الاستنتاج بأن مقدرة الرحل من زناتة في تأسيس الملك بعد الموحدين، قد ساهم في احتضار المغرب فأصبحت غنيمة سهلة في أيدي الأتراك العثمانيين! أنظر: F. Gautier.E-، Le»

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

من أكثر القبائل تمرداً على الدول القائمة[1] في بلاد المغرب، ومنها سلطة صنهاجة الشمال بفرعيها الباديسي والحمادي.

لقد ظهر من بعض ردود الزعامات الزناتية ميلها إلى التحرر، فهذا زيري بن عطية يرفض دعوة من الحاجب الأندلسي بن أبي عامر وكان جوابه لرسول الحاجب: «قل لابن أبي عامر: متى عهد حمر الوحش تنقاد للبياطرة»[2] وما يؤكد على نزعة الثورة عند زناتة، قول بلكين بن زيري بعد انتقامه لمقتل ابيه زيري «لا أمان عندي لبربري ركب فرسا أو نتج خيلا أبدا حيث ما سلك من البلاد.»[3] وهو يقصد زناتة.

كانت مغراوة من أكثر قبائل زناتة التي مارست الثورة. ففي نهاية القرن الرابع هجري كانت تصول وتجول في المغرب الأوسط والأقصى من فاس إلى أشير، وتُسبِّبُ المتاعب للدولة الزيرية قبل الانقسام، وكان على رأسهم زيري بن عطية (ت.391هـ/1000م) ، ثم ابنه المعز بن زيري (ت.417هـ/1026م)، ثم ابن عمه حمامة بن زيري بن عطية (ت.431هـ/1039م) وهو الذي زحف إليه القائد بن حماد إلى فاس سنة (430 هـ/1038م) فأظهر له الطاعة. وكان منهم بنو يعلى من آل خزر، فهم الذين قتلوا زيري بن مناد الصنهاجي، وكان منهم عند تأسيس الدولة الحمادية سعيد بن خزرون وابنه فلفول وهم الذين حكموا طبنة لصالح صنهاجة، ثم استقل فلفول فكُلِّف حماد بمواجهته.[4] كما واجهوا بنو يعلى الذين استقروا في تلمسان.

إن اتساع الرقعة الجغرافية لزناتة وكثرة بطونها واختلافها بين الحلّ والترحال، أفسد عليها صنع قبلية جامعة، ومنعها عن الاستعلاء على جميع العصبيات، فكان حكمهم ناقصا حسب التعبير الخلدوني، وجعلها تدين بالطاعة للأمويين تارة والعبيديين تارة أخرى.[5] وظلت

«cadre géographique، .p. 30 نقلا عن: فاليرين دومينيك، بجاية ميناء مغاربي (Bougie port maghrébin)، ج01، تر: عمارة علاوة، الجزائر، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2014م، ص.251.

1- إن عدم الانقياد، وهو طبع عرف به البربر طيلة تاريخهم، لم يكن مظهرا مطلقا، فإنهم خضعوا إلى قواعد تحدد علاقاتهم في مستويات ضيقة، مثل علاقات الأسر بعضها ببعض. بل ألفرد، المرجع السابق، ص.53.

2- مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، الرباط-المملكة المغربية: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط01، 2005.ص.112.ابن عميرة محمد، المرجع السابق، ص.261

3- مجهول، مفاخر البربر، ص.98.

4- ابن خلدون، العبر، ص.1820، 1826.

5- ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص.199

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

طيلة الفترة الوسيطة تعيش على وطأة زعامات متفرقة وربما ثنائية، مثل بنو يفرن ومغراوة في البداية وبين بنو مرين وبنو عبد الواد في النهاية.[1]

إذا كانت صفة المعارضة ثابتة عند زناتة في فترات عديدة، فإنّ اللافت ما نقرأه لبعض الباحثين وهم ينساقون لمواقف المصادر ويحسمون من دون تحليل أو دليل في جدلية السلطة الشرعية خلال العصر الوسيط، كقول أحدهم: «وحقيقة القول أن ثوار بني يفرن على السلطة الشرعية أكثر من أن يعدّوا»[2] وهي نفس الموجة التي سبقت إليها بعض الدراسات الاستشراقية التي رأت في زناتة المعرقلة للكيانات المتحضّرة لكتامة وصنهاجة الشمال ومصمودة. واتهمتها بالتسبب في انقسام وتفكك بلاد المغرب، وذهبت تلك الدراسات بعيداً في تأويلاتها عندما حكمت على مغرب ما بعد الموحدين بأنه سائر إلى البداوة بسبب سيطرة زناتة على كياناته السياسية في المغربين الأوسط والأقصى، وذهبوا إلى أن زناتة أمة قائمة بذاتها وبالغوا في تميزها عن باقي القبائل البربرية. وربما كان هذا التأويل الاستشراقي نابع من اعتبار قابلية القبائل الزناتية للتعريب أكثر من غيرها.[3]

والحذر مطلوب في عدم المبالغة حول ثنائية (المستقر والمتنقل) التي كانت مقتصرة على قبائل البربر نفسها. ثم أخذت أبعاداً أخرى بأقلام استشراقية عندما أسقطتها على ثنائية البربر والعرب وثنائية الجبل والسهل، مع ما تفيض به تلك الدراسات من روح قائمة على الفصل وإبراز الاختلاف والخلاف.[4] وهي دراسات لم تكن بعيدة عن سياق التنظير للنزعة الاستعمارية الفرنسية على شمال افريقيا والتبرير لها.

2.5.من الانتقال إلى الاستقرار

عرفت زناتة خلال العصر الوسيط مراحل من التدرّج في تطورها من الانتقال إلى الاستقرار. المرحلة الأولى كانت سِمَتُها الانتقال من مكان إلى آخر تحت ضغط ظروف سياسية عسكرية، بدايةً بضغط مرحلة الفتح الإسلامي التي خفّفت من تمركز زناتة في محيط القيروان وافريقية، وفي القرن الرابع الهجري حدثت هجرة زناتية واسعة من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى تحت ضغط الفاطميين وصنهاجة نكاية في مشاركتهم مع أبي يزيد مخلد بن كيداد وفي

1- جوليان. شارل أندري، المرجع السابق، ج2، ص.200
2- مجهول، نبذ، 48-49؛ نقلا عن: سنوسي يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص.71
3- بوتشيش. إبراهيم القادري، المرجع السابق، ص.24-25
4- بوطالب محمد نجيب، المرجع السابق، ص.113

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تحالفهم مع أمويي الأندلس، وفي القرن الخامس الهجري استمر الزحف الزناتي في تجاه الغرب تحت الضغط الهلالي.[1] هذه الظروف هي التي حدّدت التوجّه الجغرافي لزناتة ودفعتها إلى الانسحاب في اتجاهي الغرب والصحراء. وفي مرحلة ثانية تطوّرت إلى الاستقرار وتأسيس المدن، وفي الثالثة إلى تأسيس سلطة سياسية أكثر تمدّنا، في المغربين الأوسط والأقصى. والمعلومات عن المرحلة الأخيرة أكثر وفرةً من المرحلتين السابقتين، وهي صفة ثابتة في الكتابات المصدرية؛ إذ تتناسب وفرة المعلومات التاريخية مع قدرة الفاعل التاريخي على صنع الحدث السياسي.

بدأ الاستقرار الزناتي على ضوء الاستفادة من تجارب تمدّن الآخرين، والمصادر الجغرافية تقدّم لنا إشارات قليلة لكنها مفيدة في التعرف على أنماط الاستقرار عند زناتة، فاليعقوبي يشير إلى ما يمكن اعتباره استثمار زناتي في مدينة جاهزة هي مدينة العلويين كانت في أيدي أبناء محمد بن سليمان ثم تركوها فسكنها رجل من أبناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد بن مرحوم الزناتي.[2] وهو تصرّف أملته الظروف السياسية والعسكرية، وأكسب زناتة اقتناعا أكبر بدور المدن، وتراكم الاقتناع ورَسَخ أكثر مع تعدّد أعداء زناتة المستقرين واحتكاكها بهم، وهم العلويون، الأدارسة، الفاطميون، صنهاجة.

ومن النماذج المصدرية القليلة ما ذكره البكري في مسالكه عن تجمع زناتي وصل إلى درجة المدينة، كان في الأصل سوق من أسواق زناتة. يتعلق الأمر بمدينة فكّان تقع في الطريق بين أرشقول وتاهرت بالقرب من أَسْلَنْ، كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة، فقام أحد أمراء بني يفرن وهو يعلى بن محمد بن صالح اليفرني بتمدينها وشرع في تأسيس المدينة سنة 338هـ، وكان من شروط التمدّن التي سار عليها المُؤسِّس أن أسكن فيها «أهل المعسكر من أهل تيهرت ويلل وشاطئ بني واطيل ووهران وقصر الفلوس»[3] على حدّ وصف البكري، بالإضافة إلى شروط أخرى، كاختيار الموقع وهو في سفح جبل وعلى ضفة نهر سيرة. ولها من المعالم العمرانية الأساسية ما كان للمدينة المغربية خلال العصر الوسيط، وهي سور من الطوب وجامع وحمّام وفنادق، فعمّرت وتمدّنت وعظمت.[4] لكن هذا الوصف يبدو قاصراً عن حقيقة الانتقال من البداوة إلى

1- بوتشيش. إبراهيم القادري، المرجع السابق، ص.25، 27
2- اليعقوبي، المصدر السابق، ص.356
3- البكري، المصدر السابق، ج2، ص.749
4- نفسه، 749

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

التمدّن، من حيث الظروف والدوافع، ويبقى نموذجاً مهماً في تقديم عيّنة تاريخية للمدينة المغربية (الزناتية) ذات الخلفية الاقتصادية (الأسواق). وليس خافيا تأثير العامل الاقتصادي في صناعة التجمعات السكانية، ففي مجال الواحات الصحراوية ساهمت زراعة النخيل في تغيير المجتمع الزناتي، بفعل الاستقرار واستعمال وسائل العيش، والقيام بأنشطة زراعية قائمة على طرق السقي التقليدية المختلفة.[1] كما ساهمت القوافل بشكل كبير في ايجاد مراكز عمرانية، ظلت رهينة بقاء الطريق واستمراريته. ثم تعرض بعضها للزوال في بداية العصر الحديث بالتزامن مع توقف نشاط الطرق التجارية التقليدية والبدائل البحرية التي أوجدها الأوروبيون.

لقد حقّقت العديد من الفروع الزناتية تراكمات من الممارسة السياسية في العصر الوسيط الأعلى والأوسط، وكان من مظاهر ولاء زناتة لأمويي الأندلس الاستفادة من التجربة السياسية الأندلسية على مستوى النظم والتأثر بمظاهر الحكم، كل ذلك تؤكده الهدايا الأموية إلى أمراء زناتة التي كانت تتكون في الغالب من أنواع الألبسة والألوية والطبول والأختام.[2] وتوجّتها بتجارب أكثر اتزانا وتحكما في المجال مع قبيلتي بني عبد الواد وبني مرين. لكن بقيت هذه الدول على مستوى النظم محافظة على بعض مظاهر البداوة في مستويات الممارسة السياسية، فنقلت المصادر أن تنظيمات دولهم لا نجد فيها وظيفة الحاجب على خلاف الممالك الكبيرة كالأمويين في الأندلس والعبيديين في مصر، وفي بداية معاركهم يتقدم شاعر منهم أمام الصفوف ويتغنّى ويبعث بغنائه على الاستماتة، ويسمّى ذلك عندهم «تاصوكايت»[3]

خاتمة

قبيلة زناتة من قبائل البربر القليلة التي سجلت حضورها في جميع محطات التاريخ المغربي الوسيط، وحتى في مراحل اختفاءها من صدارة المشهد السياسي لصالح قبائل أخرى، كان العنصر الزناتي يسجّل حضوره كعنصر مستقلّ وفعّال ضمن التنظيم العسكري لدول

1- التليلي، المرجع السابق، ص.43

2- حول محتويات الهدية بين الأمويين وأمراء زناتة، أنظر: ابن حيان القرطبي، المقتبس، ج.5، اعتنى بنشره ب.شالميتا، مدريد-اسبانيا: المعهد الاسباني العربي للثقافة، 1979م، ص.288-289، 460

3- ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص.255، 274

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الحماديين والمرابطين والموحدين.[1] ويقيس ابن خلدون قوة زناتة في عهد ملوك غيرهم من البربر بأنهم لم يكونوا يؤدّون المغرم.[2]

لقد تفادى معظم الباحثين الخوض في تفاصيل بطون قبائل زناتة بسبب التعقيد والغموض اللذان يحيطان بالظاهرة، ولم يستطع أكثر المتخصّصين في الشأن القبلي كابن خلدون من تحديد حدود الاتصال والانفصال بين زناتة والآخر، وتبين لنا أن الاكتفاء بالبطون المؤثرة سياسيا ومذهبيا هو الأسلم. كما بدا واضحا صعوبة تحديد المجال الجغرافي لزناتة طيلة العصر الوسيط بشكل دقيق، بسبب الانتشار الكبير وكثرة التفريعات القبلية، لكن الملمح الأهم أن زناتة كانت تنتقل تدريجيا من الشرق إلى الغرب والجنوب تحت ضغط الفتح والفاطميين والهلاليين.

ويبدو أن الضغط كان خادما للقبيلة التي أسّست بفروعها الكثيرة، قصورا واحاتية على طول طريق الواحات من توات إلى وارجلان، كما كان لها نصيب من الحكم السياسي بعد الموحدين. وهي مرحلة أبانت فيها زناتة عن قابلية للاستقرار والتمدن والتحضّر انتهى في الأخير بهذه القبيلة إلى طريقين، الأول هو استقرار بشكل نهائي والمحافظة على اللسان الزناتي في جيوب جغرافية محدودة كواحات تيميمون وورقلة ومزاب وبوسمغون. الثاني هو تعريب واقتسام مجالات الرعي مع القبائل الهلالية الوافدة.

8.المصادر والمراجع

1.الإدريسي. الشريف (نحو 548هـ/1154م)، وصف افريقيا الشمالية والصحراوية. مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بيريس، الجزائر: مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية، 1376هـ/1957م.

2.البكري. أبي عبيد (ت.487هـ/1094م)، كتاب المسالك والممالك، ج.1، ج.2، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1992م.

3.بل ألفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي. من الفتح العربي حتى اليوم، تر: بدوي عبد الرحمن، بيروت-لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط3، 1987م.

1- هوبكنز ج.ف.ب: النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تر: الطيبي أمين توفيق، الدار البيضاء-المملكة المغربية: شركة النشر والتوزيع المدارس، ط2، 1999م، ص.110، 120

2- ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص.151

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

4.بوتشيش. إبراهيم القادري، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت-لبنان: دار الطليعة، ط1، 1998م.

5.بوطالب محمد نجيب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، بيروت-لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2009م.

6.التليلي محسن، الإسلام البدوي. اسلام الطوارق إنموذجا، بيروت-لبنان: دار الطليعة، ط1، 2010م

7.تويراس رحمة، "تعريب المجتمع في العصر الوسيط ودوره في التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب"، محلة أسيناك، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط-المملكة المغربية، ط2، 2013م، (ص ص: 49-74)

8.جوليان. شارل أندري، تاريخ افريقيا الشمالية، ج2، تعريب: مزالي محمد وبن سلامة البشير، تونس: الدار التونسية للنشر، ط3، 1985م.

9.ابن حوقل النصيبي. أبو القاسم (ت. بعد 367هـ/977م)، صورة الأرض، ليدن: (د.ن)، ط02، 1939م.

10.ابن حيان القرطبي، المقتبس، ج.5، اعتنى بنشره ب.شالميتا، مدريد-اسبانيا: المعهد الاسباني العربي للثقافة، 1979م.

11.ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد (ت.808هـ/1405م)، تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، عمّان-الأردن: دار الأفكار الدولية، (د.ت)

12.ـــ، المقدمة، ج1-ج2، تصحيح وفهرسة المندوه أبو عبد الله السّعيد، بيروت-لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية، ط3، (د.ت)

13.أبو زكرياء. يحي ابن أبي بكر (ت.471هـ/1078م)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح وتع: اسماعيل العربي، الجزائر، المكتبة الوطنية، 1399هـ/1979م

14.سنوسي يوسف إبراهيم، زناتة والخلافة الفاطمية، مصر: مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، ط1، 1986م.

15.الطمار. محمد بن عمرو، تلمسان عبر العصور. دورها في سياسة وحضارة الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

16.ابن عبد الحكم. عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح أفريقية والأندلس، تح: عبد الله أنيس الطبَّاع، بيروت-لبنان: دار الكتاب اللبناني، 1963م.

17.عزاوي أحمد: رسائل ديوانية مغربية (من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع هـ)، المملكة المغربية: مطابع الرباط نت، ط1، 2014م.

18.بن عميرة محمد، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

19.فاليرين دومينيك، بجاية ميناء مغاربي (Bougie port maghrébin)، ج01، تر: عمارة علاوة، الجزائر، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2014م

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

20.كامب غابرييل، البربر. ذاكرة وهوية، تر: حزل عبد الرحيم، الدار البيضاء-المملكة المغربية: منشورات افريقيا شرق، 2014م.

21.الكعاك عثمان: البربر، الدار البيضاء-المملكة المغربية: مطبعة النجاح الجديدة، ط2، 2003م.

22.مؤلف اباضي مغربي مجهول (ق.6 -7هـ/12-13م)، ذكر أسماء بعض شيوخ الوهبية، "طبعة حجرية"، العطف-غرداية-الجزائر: دار التلاميذ «إروان»، (د.ت)

23.مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، الرباط-المملكة المغربية: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط01، 2005م

24. مجهول مراكشي من كتاب ق6هـ/12م، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء- المملكة المغربية، 1985م

25.الهاشمي أحمد، "مدخل لدراسة المصطلح الجغرافي الأمازيغي في طوبونيميا الجنوب المغربي"، ضمن كتاب: المصطلحات الجغرافية الأمازيغية، ج3، تنسيق: حسن رامو، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط-المملكة المغربية، 2011م.

26.هوبكنز ج.ف.ب، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تر: الطيبي أمين توفيق، الدار البيضاء-المملكة المغربية: شركة النشر والتوزيع المدارس، ط2، 1999م.

27.الوارجلاني. أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي (ت.570هـ/1174م)، رحلة الوارجلاني، تح وتع: يحي بن بهون حاج امحمد، غرداية-الجزائر، (د.ن)، ط01، 2006م.

28.اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الكاتب، كتاب البلدان، بيروت-لبنان: دار صادر، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل، 1892م.

29. AMARA Allaoua, Pouvoir, Economie et Société dans le Maghreb Hammadide (395/1004-547/1152) volume I-II, Directeur de thèse Françoise MICHEAU, Université Paris I Panthéon-Sorbonne, UFR d'histoire, Année 2002

30. MERCIER ERNEST، Les Berbères et les Arabes، Tafat Essai، Alger, 2012.